الإمام الحسين عليه السلام في رحاب القصيدة العربية
الجواهري أنموذجا جديدا رؤية نقدية جديدة

الأستاذ المساعد الدكتور
علي محمد حسين الخالدي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

الإمام الحسين عليه السلام في رحاب القصيدة العربية الجواهري أنموذجا جديدا رؤية نقدية جديدة

الأستاذ المساعد الدكتور
علي محمد حسين الخالدي
جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة:

مذ واقعة الطف واستشهاد أبي الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء أصبح للقصيدة العربية موقف واضح من تلك الشخصية الفذة. فقد احتفت تلك القصيدة العربية بالإمام الحسين، وجعلته محورا من محاورها وهما من همومها. إذ أبدت مشاعر الأسى والحزن وذرفت الدموع على ما تعرض له (عليه السلام) وأهله وأصحابه من ظلم وجور في تلك الواقعة على يد الحكام الأمويين الطغاة وزبانيتهم المجرمين. وبهذا قامت تلك القصيدة بواجبها الأدبي والأخلاقي والإنساني إزاء ذلك الحدث الجلل. وظلت تلك القصيدة على موقفها مكتفية بالبكاء والنواح على الإمام دون أن تلتفت إلى الاشراقة الحسينية في الثورة والإصلاح وإرادة التغيير للواقع، ومواجهة الظلم والظالمين بكبرياء وعزة نفس وإباء حتى جاء الجواهري فامسك بزمام تلك القصيدة وانعطف بها إلى ذرى جديدة حيث صار الحسين في شعر الجواهري رمزا وثائرا يجدد أثواب الحياة ويدعو للإصلاح والتغيير ويرفض الذل والظلم والظالمين ويحرض عليهم وذلك من خلال قصيدته (أمنت بالحسين) التي جاءت بعد مخاض عسير مهّد لولادتها الجواهري بأكثر من قصيدة استشرف

بها ملامح الإمام الحسين الثائر وهي: صوت من النجف، وتحية الوزير، وعاشوراء.

وقد تكمن أهمية هذه الدراسة في أن أوضاع الشعوب في العالم ومنها شعبنا العراقي بحاجة إلى صوت الحسين ونهجه النيّر (المهيع). حاديا لركب الخلود، ومسيرة الثوار والأحرار في العالم و(عظة للطامحين العظام).

المحور الأول
القصيدة العربية الحسينية ما قبل الجواهري

في كربلاء وفي العاشر من محرم للعام ٦١هـ وقف رجل عظيم في ميدان معركة سميت بمعركة الطف وقد انتهت هذه المعركة نهاية مأساوية وفاجعة تركت ندوبها في سفر التاريخ البشري وعبر تلك الفاجعة استشرقت البشرية فجرها المشرق الجديد وأخذت تدرك أن الإمام الحسين قد آذن لما بالانتقال من عهد الاستسلام والإذعان والخنوع إلى عهد الحرية والانعتاق والإباء حينما واجه جحافل الظالمين بما يملكون من قوة السلاح بإرادة أسطورية لم يشهد لها تاريخ الكفاح مثيلا لقد هز ذلك الحدث الجلل وجدان الشعر وضمير الشعراء العرب. ووقتذاك دخل الإمام الحسين رحاب القصيدة العربية وأصبح دلالة مهيمنة واسعة لكنها ذات مضامين متباينة من عصر لآخر. ومن قصيدة لأخرى لذا فإن القراءة النقدية المتأنية للتراث الشعري الحسيني القديم الهائل قد تمكن الدارس من الاستنتاج بأن القصيدة العربية القديمة مذ بواكيرها الأولى حتى بزوغ نجم الجواهري كانت ذات طابع بكائي فقد أتسمت بالبكاء على الحسين وتصوير مشاهد القتل والسبي وإظهار الأسى والحزن والتعبير عن الغضب على القتلة وشتمهم. فقد وصفتهم القصيدة العربي القديمة بالأراذل والاسافل

وهم يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد والشمر بن ذي الجوشن أولئك القتلة المجرمون وهي محقة بذلك.

وقد ظهر البكاء وألفاظه في أول شعر رثي به الحسين بعد معركة الطف وكان الشاعر عقبة بن عمر والسلمي الذي قال[١]:

مررت على قبر الحسين بكربلا ففاض عليه من دموعي غزيزها

فمازلت أرثيه وأبكي لشجوه ويسعد عيني دمعها وزفيرها

وجاء الشعراء من بعده يعبرون عن حزنهم على الإمام الحسين بالبكاء وتذراف الدموع وبأسلوب شعري لدى بعضهم كان ناضجا كقول سليمان بن قتبة[٢] من شعراء القرن الأول الهجري:

ألم تر إن الشمس أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت

وقد أعولت تبكي السماء لفقده وأنجمها ناحت عليه وصلت

وهنا أعطى الشاعر للبكاء مساحة أوسع حين جعل السماء تبكي وبكاء السماء وإن كان تعبيرا استعاريا لكنه شحن بمعنى أعمق للحزن أو الألم.

ولم يختلف شعراء القرن الثاني عن سابقهم في المنحى البكائي للقصيدة الحسينية الراثية كالكميت[٣] والسيد الحميري[٤] ومنصور النميري الذي كان من خاصة هارون الرشيد إذ نسمعه يقول[٥]:

متى يشفيك دمعك من هموك ويبرد ما بقلبك من غليل

ويجلو قلب ذي ورع وديني من الأحزان والهم الطويل

وفي القرن الثالث واصل الشعراء التقليد البكائي ذاته فدعبل الخزاعي الذي رثى الحسين بأكثر من قصيدة كانت التائية من بينها الأشهر وكان بكائيا أيضا[٦]

بكيت لرسم الدار من عرفات وأذريت دمع الدين بالعبرات
سابكيهم ما ذرى بالأرض شارق ونادى منادي الخير بالصلوات
ألا فابكهم حقا وبل عليهم عيونا لريب الدهر منسكبات
ولا ننسى في يوم الطفوف مصابهم وداهية من أعظم النكبات

يتضح هنا بعد مرور أكثر من قرنين عن مصاب الإمام الحسين والقصيدة العربية مازالت تبكي وتنوح وقد تكون محقة ـ بل هي محقة بذلك ـ لقربها عهدا من ذلك الحدث الجلل المروع ولأن الأمويين ما زالوا في السلطة وما عرف عنهم من بطش وقسوة ضد الصوت السياسي والشعري المعارض.

غير أن بعض الشعراء قد تقدم خطوة أبعد من البكاء حين هاجم الأمويين ولعنهم كقول ابن دريد الازدي(٧):

لعن الإله بني أمية ما غنى على فنن مغرده

وكلما تقدم العمر بالقصيدة العربية تصبح أكثر بعدا عن الحدث وأكثر جرأة في تناول القضية الحسينية لكنها لم تفارق ثوابتها البكاء والدموع والنواح والعويل فضلا عن رسم مشاهد القتل والعطش وما تبع المعركة من نتائج مؤلمة ونهايات مؤسفة كالسبي .

وهذا ما جعلنا أمام ظاهرة قد ألح عليها الشعراء وهي محاولة استدرار العواطف وربما الشفقة على الحسين حينما تصوره وآل بيته عطاشا ومن هؤلاء الشعراء كالناشئ الصغير(٨):

قتيل على نهر الفرات على ظمأ تطوف به الأعداء وهو غريبُ
كأن لم يكن ريحانة لمحمد وما هو نجل للوصي حبيبُ

وقد التفت تميم بن المعز الفاطمي إلى مشهد السبي مظهرا أسفه فيقول(٩):

تساق على الارغام قسرا نساؤهم سبايا إلى أرض الشآم تقادُ

وقد سبق الإشارة إلى ما اتسمت به القصيدة العربي من جرأة أحيانا في ظل الدولة الأموية وقد تمثلت في هجاء الأمويين ومهاجمتهم جراء فعلتهم الشنيعة تلك حتى أصبحت تلك المهاجمة أحد محاور القصيدة الحسينية وقد أتسع هذا المحور وتنامى بعد سقوط الدولة الأموية وصعود نجم العباسيين إذ لا نجد قصيدة حسينية رائية تخلو من هذا الصوت المهاجم لبني أمية. فالشاعر العربي أصبح حرا في إعلان معاداته للأمويين فالدولة العباسية كانت تشجع ذلك الصوت وتهيأ له أسباب الارتفاع كما في بائية الشريف المرتضى[١٠]:

لعـــــن الله رجـــــالا اترعـــوا الـــدنيا غصـــوبا
ســـالموا عجـــزا فلمـــا قـــدروا شـــنوا حروبـــا
كلمـــا ليمـــوا في عيـــبهم ازدادوا عيوبـــــــــــا

مما جعل شاعر آخر هو السيد معتوق الموسوي القرن الحادي عشر أن يصف الأمويين بالكلاب السود في قوله[١١]:

هَـلَّ الْمُحَـرَّمُ فَاسْـتَهِلَّ وكَبِّـرَا وَانْثُـرْ بِـهِ دُرَرَ الـدُّمُوعِ عَلَـى الثـرَى
شَـهْرٌ بِحُكْـمِ الـدَّهْرِ فِيهِ تَحَكَّمَتْ شَـرُّ الْكِـلاَبِ السُّـودِ فِي أَسَـدِ الشَّـرَى
لِلـــهِ أَيُّ مُصِـــيبَةٍ نَزَلَـــتْ بِـــهِ بَكَـتِ السَّـمَاءِ لَهَـا نَجِيعـاً أَحْمَـرَا

فالدمع والبكاء لم يفارق مقلة القصيدة العربية وإن اتجهت في بعض مساراتها إلى وجهة أخرى كالهجاء السياسي وشتم القتلة من الأمويين كما في قول الشيخ حسن السبتي[١٢]:

أهلـت دمـوعي حـين حـل محـرمُ فطيـب الكـرى فيـه علـي محـرمُ
فـــوافتهم أجنـــاد آل أميـــة وقائـــدهم شمـــر الخنـــا يتقـــدم

وهكذا ظلت القصيدة العربية الحسينية تنزف مع الدمع دما ومع الحزن ألما على الحسين وهي بذلك قامت بواجبها الأخلاقي والإنساني إزاء الإمام

والجريمة التي اقترفت بحقه. وظلت مفردات (المظلوم) و(العطشان) و(وبلا معين أو نصير) تأخذ مداها في القول الشعري العربي القديم ولم يلتفت شعراء الحسين القدامى إلى الأفق المشرق الوضاء في شخصية البطل أفق الثورة والإصلاح والتغيير. وقد لا يستبعد الباحث وجود (أيادي تعمل على تغيّب هذا الواقع المستقبلي وتعتم على الرؤية ـ الأفق)[١٣] مما جعل تلك القصيدة تتكلس أو تتقولب ضمن هذا القالب الشعري الاستسلامي الأحادي الذي (يدل على ميل المجتمع العربي إلى الثبات وعلى تخوفه من الجديد الذي يرتبط بروح العصر ومتطلبات المجتمع ومديات هذا التطور)[١٤].

ولهذا لم يتح للقصيدة الحسينية أن تتجاوز ثباتها وتنتقل إلى أفق جديد يمنحها ألقا يتناغم وجوهر الحقائق وطبيعتها على الأرض ومنها جوهر شخصية الحسين ومضمون ثورته ودواعيها الإصلاحية والإنسانية النبيلة.

فالحسين رجل ثورة ورائد إصلاح وقائد معركة لم يكن خائفا أو جائعا أو عطشانا ولم يكن خائر القوى متعبا يثير الشفقة والعطف .. بل كان ربيط الجأش قويا (لكنهم لم يعرفوا معنى القوة الحقيقية)[١٥]. فهو لم يخف مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يضرع لهم!! كان حرا أبيا جريئا يقارع المجرمين ودولتهم المستبدة بالسيف والكلمة . لم يكن الحسين عطشانا بل أن الأرض كانت عطشى إلى دمه وهو يعلم بأن نقط الدم هذه سوف تنهض عليها أغصان شجرة الحياة كالسنديان[١٦] لهذا فان كل قصائد الدمع وكل قصائد البكاء تتراجع خجلى أمام الحسين. وإزاء كلمته الحرة تتهاوى كل سيوف ورماح ودروع وحصون وقلاع وجحافل وعروش ورياش وصولجان وسنابك خيل الطغاة من أمويين وغيرهم عبر العصور حتى أصبح الحسين رمزا للثائرين ومفزعا للمستعبدين والمظلومين ومفزعا للطغاة الظالمين ومنارا

للطامحين العظام من عشاق الحرية في العالم كله. ومنه العراق وهذا ما استشرفه الجواهري حين أسدل الستار على وجه القصيدة الحسينية الباكي واستحضر الحسين ثائرا عزوفا أنوفا يأبى الضيم ويرفض الظلم ويحدو بركب الثائرين وبذلك دشن الجواهري عهدا جديدا للقصيدة العربية الحسينية.

المحور الثاني

الحسين في رحاب شعر الجواهري

في رحاب شعر الجواهري نجد للحسين صورة أخرى غير تلك التي رسمتها القصيدة القديمة وكانت صورة لم ترق إلى مهابة الحسين وعظمة شخصيته فقد نأت بالحسين إلى غير فلكه أو مداره. ولعل مستوى تطور المجتمع العربي والإسلامي والخوف من بطش الحكام كان من العوامل التي منعت الشعراء من استكشاف أفق الثورة ووميض الرفض والتمرد والدعوة للتغيير والإصلاح.

وكل ذلك قد تهيأ لشاعر في القرن العشرين إذ أمسك بزمام القصيدة العربية وأنعطف بها إلى فلك جديد وسماء جديدة وتحول الحسين من العطشان والمظلوم والقتيل إلى الثائر والمصلح والمخلص .. لقد تنامى الحسين لدى الجواهري رمزا شعريا عبر أربع قصائد، فالحسين لم يدخل حرم القصيدة الجواهرية دفقة واحدة وإنما كان قطرة قطرة حتى استقام وتوهج واكتمل في العينية (أمنت بالحسين) وكانت قبلها قصائد ثلاث هي (صوت من النجف)١٩٢٣ و (تحية الوزير)١٩٢٧و (عاشوراء) ١٩٣٥.

١ـ صوت من النجف ١٩٢٣ لم يرد فيها أسم الحسين فقد كانت دفاعا عن شيعة آل البيت في العراق الذين تعرضوا إلى حملة تضليل واساءة أقدم عليها بعض تجار الدين والسياسة[١٧] حينذاك. وقد تكون تلك القصيدة

البذرة الأولى التي أزهرت فيما بعد بفكرة الحسين في قصيدة (أمنت بالحسين) بعد مرور ربع قرن من الزمن.

ففي هذه القصيدة خاطب شاعرنا الجواهري الشاعر الرصافي وهو من الفلوجة مثنيا على موقفه المشرف إزاء الحملة الإعلامية الضالة ضد شيعة العراق. يقول[١٨]:

وما كنتَ شيعياً ولكن مذهباً دعاك لكف الظن عنه يقينه

داعيا إلى التوحد ونبذ الطائفية إلى يروج لها الضالون:

أخلايَ ما أحلى التآلفَ في الهوى إذا كثُرت عُذّالُهُ وعُيونه

هلُموا فهذا الروض زاهٍ أريضُهُ لنرتاده والماءُ صاف معينه

نسير معاً لا العرق مني بنابِض سواكم ولا عهد الإخاء أخونه

وبعد مرور أربع سنوات على (النونية) هذه تأتي البائية وهي أكثر وضوحا في منحاها الحسيني إذ ورد فيها أسم الحسين صريحا للمرة الأولى في شعر الجواهري. والقصيدة هي (تحية إلى الوزير) .

٢- تحية إلى الوزير ١٩٢٧ أنتصر الجواهري فيها للحسين في لجة فتنة طائفية أوقد شرارتها كتاب (الدولة الأموية في الشام) للناصبي المهوس (أنيس النصولي)،ففي هذا الكتاب أجترأ النصولي على الإمام الحسين مما دفع وزير المعارف المرحوم عبد المهدي المنتفكي أن يعاقبه بالفصل والإبعاد عن التعليم فان ذلك الموقف للوزير قد حرك قريحة الجواهري فكتب بائيته الحسينية التي يرد فيها اسم الحسين لأول مرة كما أسلفنا وكان مطلعها[١٩].

حيِّ الوزيرَ وحيّ العلمَوالأدبا وحيِّ من أنصف التأريخَ والكتبا

وحيِّها ضربةً للجهل قاصمة مجالسُ العلم قد عجّت بها طربا

إلى أن يقول[٢٠]:

حسب الحسين الذي لاقاه مغتربا من الشآم وما لاقاه محتربا

فمازال الشائر في الحسين غير واضح القسمات لدى الشاعر إذ احتاج الجواهري إلى وقت كي تصقل موهبته ويعرك عموده الشعري كي يصل إلى الحسين الرمز وهذا ما قامت به وأنضجته قصيدة عاشوراء التي أصبح الحسين واضحا وان بعضا من ملامح الثوار غدت مشعة فيها إلى حد ما.

٣ـ عاشوراء ١٩٣٥ . وهي قصيدة تاريخ وسياسة وصراع وكان الجواهري فيها مندهشا ومضطربا لم يجد إجابة لتساؤلاته فالحيرة بادية على أهداب القصيدة وقد تقاسمها طرفا الصراع الإمام الحسين وأهله وأصحابه من جهة وخصمه يزيد وزبانيته مع جيوشه المدججة بالسيوف والرماح والحقد الدفين على الحسين وآل بيته. لقد استحضر الجواهري فضائل الحسين ومفاخره ومثالب يزيد ورذائله ومن خلال الموازنة انتصر الشاعر لرمزه الذي أخذ ينمو ويترعرع في مخياله الشعري وعقله الباطن إذ نسمعه يقول في مطلع لم تعتد القصيدة الحسينية أن تستهل به[٢١]:

هي النفس تأبى أن تذلَّ وتُقهَرا تَرَى الموتَ من صبرٍ على الضيم أيسَرا
وتختارُ محموداً من الذكرِ خالداً على العيش مذمومَ المغَبَّة مُنكَرا
تسامَى سموَّ النجم يأبى لنفسه على رغبة الأدنَينَ أن تتحدَّرا

ثم يعبر عن دهشته وحيرته واستغرابه من إقدام هؤلاء المجرمين على قتل ابن بنت (نبيهم):

وما كنتُ بالتفكير في أمر قتلِه لأزدادَ إلا دهشةً وتحيُّرا

ويأتي ليوازن ولا أقول يفاضل بين الثرى والثريا بين يزيد والحسين بقوله[٢٢]:

بنـو هاشـمٍ رهـطُ الـنبيِّ وفـيهُمُ ترَعـرَع هـذا الـدينُ غَرسـاً فـاثمَرا
وفيهِمْ (حسينٌ) قِبلةُ الناس أصيدٌ إذا مـا مَشَـى والصـيد فـات وغبَّـرا

ثم يقول:

تـولى يزيـدٌ دَفَّـةَ الحكـم فـانطوى على الجمر من قد كانَ بالحكم أجَدرا
تـردَّى علـى كـره رداءَ خِلافـةٍ ولم يُلـقِ عنـه بعـدُ للخمـرِ مئـزرا
فكـلُّ أمـورِ المسـلمينَ بسـاعةٍ مـن المجلِـسِ الزاهـي تُبـاع وتُشـتَرى

ثـم ينتبـه إلى مـا أصـاب قضـية الحسـين مـن تحريـف وإسـفاف أبعـدها عـن جوهرها الإنساني النبيل ونهجها الثوري الرافض للظلم والظالمين وهـذا ما نهضت به العينية التي فتحت عيون عشاق الحرية والتحرر على جوهر الحسين الخالص ودواعي ثورته السياسية الكبرى.

٤ـ أمنت بالحسين ١٩٤٧: لقد أدرك الجواهري بأن قضية الحسين لم توضع في إطارها الحقيقي وقد ظل هذا الهاجس يداعبه ردحا من الزمن قد دام قرابة ربع قرن حتى تهيأت له العوامل الذاتية والموضوعية لإنضاج ما خالجه من إرهاصات وأفكار وشكوك وقلق وتوجس فضلا عن الحيرة والاندهاش بما حدث.. لقد مرت عملية الإنضاج للعينية عبر عشرات القصائد التي تنتمي إلى خط الرفض والتمرد والتغيير ومنها ما دار حول شخصيات لها دور سياسي وطني أو أحداث شهدها العراق أو الوطن العربي والإسلامي. بيد أن قصائده (صوت من النجف وتحية الوزير وعاشوراء) هن الأقرب إلى الحسين مما يجعلنا وصفها بالممهدات للقصيدة الحسينية الكبرى (أمنت بالحسين) تلك القصيدة التي قيل عنها بأنها (واحدة من القصائد التي يمكن أن تنصب الجواهري على عرش الشعر)[٢٣].

ومن الغريب أن أكثر من درس الجواهري سواء حياته أو شعره ممن عاصروه أو كتبوا عنه لم يلتفتوا إلى هذه القصيدة ناهيك عن المئات من المقالات المنشورة ضمن إصدارات تحمل أسم الجواهري ومن بينها أو بينهم:

١ـ ديوان العصر للأستاذ حسن العلوي[٢٤]

٢ـ الجواهري مسيرة قرن د.خيال الجواهري[٢٥].

٣ـ الجواهري مجمع الأضداد، د. سليمان جبران[٢٦]

٤ـ الجواهري النهر الثالث، د. خيال الجواهري[٢٧].

وأمنت بالحسين قصيدة حشد لها الشاعر من أدوات الفن وتقنيات التعبير الشعري ما يجعلها الفريدة بين قصائد الحزن والإباء والثورة على الظالمين إذ سكب في عروقها من الحب الموطد باليقين ما يقربها من أشعار المتصوف ومكابداتهم ومناجاتهم في لغة هي أشبه بلغة الحور والنور انها اللغة التي تليق بالحسين ومقامه السني ونهجه النير المهيع لقد قامت القصيدة على ثلاثة مرتكزات أو عوالم تقاسمت فضاءها.

أولهما : الحسين الثائر: لقد استحضر الشاعر الإمام الحسين عبر الضمائر العائدة إليه (عليه السلام) والمؤترجة بالذات الحسينية وهي:

١ـ كاف المخاطبة التي ألحقت بـ (مشواك) و(يومك) و(نهجك) و(ثراك) ومجدك) و (قبرك) و(مثلك) و(صوتك) و(أمرك) و(حادثك) و(عليك) و(لأهليك) و(وجدتك) و(لحمك) و(ضميرك) و(ذكراك) و(إليك) و(أعطاك) فقد تكررت الكاف عشرين مرة .

٢ـ تاء الحسين المخاطبة : (تعاليت) مكررة ثلاث مرات:

٣ـ تاء الحسين المضارعة تتقي وتطعم.

٤ـ ياء مناداة الحسين (أيها الوتر) و(يا عظة الطامحين) و(يا ابن البتول) و(يا غصن هاشم) و(يا ابن التي لم يضع مثلها) و(يا ابن البطين) و(يا ابن الفتى الحاسر) و(يا غصن هاشم) و(يا واصلا نشيد الخلود).

٥ـ والحسين قد شخص في القصيدة بصفات شحنت بدلالات التشوير والتنوير (الأبلج الأروع) و (الوتر في الخالدين) و(الفذ) و(مفزع الحتوف) و(مفزع الخانعين) و(خد تفرى) و(عالم أروع) و(الملهم المبدع) و(اليد حمراء مبتور الأصبع) و(وصاعق يلتظي) و(اللامع في الداجيات) و(فلك يدور) و (اصلا نشيد الخلود) و (صورة رائعة) و(طاعم الموت) و(المعطي لحمه للمبضع) و(واقي الضمير).ومن خلال ذلك فان الحسين قد اخذ المساحة الأوسع من فضاء القصيدة لهذا سميت باسمه ويأتي بعده الشاعر الجواهري.

٢ـ عالم الشاعر في القصيدة :

لقد التقى الجواهري بالإمام الحسين في حرم قصيدته وجها لوجه بعد أن استحضره عبر أسلوب شعري جواهري محبب تمكن الجواهري من خلاله أن يرى الحسين ويسمعه ويخاطبه ويناجيه ضمن مساحة محدودة من القصيدة فقد جاء الجواهري محمولا عبر تاءات لاذت بالافعال خجولة مهطعة منبهرة: (شممت) و(عفرت) (خلت) و(طفت) و(تمثلت) و(محصت) و(ازحت) و(وجدت) و(قدست) و(أقمت) و(أمنت) التي أخذت القصيدة من هذا الفعل عنوانا لها وهو عنوان غير دقيق وفيه اشكالية واضحة كما ارى ولم تكن (تاء الشاعر) كافية لشخصنة الجواهري فجاءت (ياؤه) لتعزز حضوره إلى جوار الحسين وهي (بروحي) و(حسبي) و(خاطري) و(ذي) و(معي) و(فكرتي) و(اضلعي) كما أن التاء والياء الجواهريتين لم تكونا كافيتين لتأكيد

حضور الشاعر بل انه استعان بالضمير المستتر في الأفعال المضارعة المنفية والمثبتة (لم أرتهب) و(لم اخدع) و(لم أرع) و(لم انتحل) و (لم أدعي).

والشاعر هنا في القصيدة قد جاء عبر تاءاته وضمائره قلقا شاكا يبحث بخجل عن بطل ويقين .. فلم يجد سوى الحسين الذي شم عبق ترابه واستاف اريج الكرامة وعفر خده بهذا التراب مؤمنا متيقنا بأن الحسين هو رمز الثورة وقدوة الثوار في العالم .

ثالثهما: عالم الناس :

وهو عالم وصفه الشاعر مترعا بالضيم والخنوع ومتخبطا في غابة تسودها شريعة قد استن الذئاب والسباع قوانينها لما لهذه الوحوش الضارية من قوة البطش بالاخر وبهذا قد اومى إلى المجتمع الذي تسوده شريعة الغاب شريعة (تساوم أو تسام) . إذا فالقصيدة كانت قاسما مشتركا بين ثلاثة عوالم الحسين والشاعر والمجتمع وهذا المثلث الذي جسدته القصيدة قد تفاعل في اطار (لغة تمنح القارئ لذة التساؤل ومتعة الكشف)[٢٨].

مما جعل القصيدة تعبر عن نضجها الفني والمضموني اكتسبته بعد مخاض شعري دام أكثر من عقيدين لتأتي برمز احتضنته ورؤية خرجت بها إلى الناس راسمة الصورة الحقيقية للإمام الحسين صورة البطل الثائر لتمنح نفسها ميسما جديدا يجعلها فاتحة لعهد جديد في تاريخ القصيدة العربية الحسينية .

وبهذا فان قصيدة (أمنت بالحسين) أصبحت قصيدة الحزن الجديد والقراءة الجديدة للحسين ولما حدث في كربلاء في العاشر من محرم ٦١هـ .

لقد جدد الجواهري ديباجة القصيدة العربية الحسينية وانعطف بها إلى ذرى تليق بالحسين وكبريائه الاسطوري حينما نأى بالعينية عما هو سائد أو ساد من تقاليد اعتادت عليها القصيدة العربية ما قبل الجواهري وترعرعت في

اجوائها. لقد كانت العينية قصيدة حسينية حزينة ولكن ليس الحزن المألوف حزن العامة إذ لم تكن باكية مقرحة الجفون مدلهمة بل كانت قصيدة للبطولة والثورة والفرح قصيدة للحسين وفي الحسين الثائر على الظلم والمستخف بالظالمين والمحرض عليهم بيد حمراء مبتورة الاصبع وجسد مخضب بالدم طاهر ونفس عالية لم تضرع ولم تخشع وكلمة كانت اقوى من كل سيد الطغاة وجبروتهم هي الكلمة التي جعلت الحسين (الوتر في الخالدين) و(عظة الطامحين العظام) . القصيدة العربية الحسينية ما بعد الجواهري (ما بعد العينية).

وبعد الجواهري اخذ رعيل من الشعراء ينسج على منواله ويسير على نهجه.وفي مقدمة هذا الرعيل كان الدكتور مصطفى جمال الدين وله قصيدة حسينية واحدة يضمها ديوانه ١٩٥٧ أي بعد عشر سنوات على العينية قد نجد أثر الجواهري واضحا يقول فيها[٢٩]:

ذكراك تنطفئ السنين وتغرب ولها على كف الخلود تلهب
لا الظلم يلوي من طماح ضراعها أبدا ولا حقد الضمائر تحجب

ثم ينادي الحسين بمفردة الخطاب المحببة لدى الفقهاء:

مولاي درب الخالدين منور بالذكريات الغر سمح مخصب
تهفو لروعة المنى لكنه مما تحيط به الفجائع متعب
إيهاً ابا الأحرار أي كريمة تبني الوجود وليس منك لها أب
أنت الذي أعطيت ما أعيا الورى تصديقه ووهبت مالا يوهب
مولاي أنت لكل جيل صاعد قبس ينير له السرى ويحبب

والشاعر جمال الدين لا يترك قارئه أو سامعه يكد الذهن لمعرفة سر هذا الحب للحسين .. فيجيبه:

أنـا لسـت شـيعيا لان علـى فمـي ذكـر الحسـين أعيـد فيـه وأطنـب
ولان في قلـبي عصـارة لوعـة لأسـاه تـذكرها العيـون فتسـكب
ولان أمـي أرضـعتني حبـه ولأنـه لأبـي وجـدي مـذهب
لكـنني أهـوى الحسـين لأنـه للسـالكين طريـق خـير أرحـب

أما الشيخ الوائلي فكانت له أكثر من إحدى عشرة قصيدة حسينية ولم تشتهر أي منها كعينية الجواهري أو تقترب على الرغم مما اتصفت ببعض ملامح التجديد الموضوعي. فنسمعه يخاطب الحسين في دالية يقول فيها[٣٠]:

فأكبرت فيك الدم أسرج شعلة بقلـب ظـلام الليـل حتـى تبـددا
ومجدت جرحا في جبينك شامخا يهـز الجبـاه الخانعـات لتصـعدا

وفي دالية أخرى يقول في (الدم الثائر)[٣١]:

يـا دمـا كلمـا تشـيب الليـالي يجتليـه الزمـان وهـو جديـد
مـارد يحمـل الحسـين حسـاما كلمـا مـر بـالوجود يزيـد

ولم يخلو قصائد شعر الوائلي الحسيني من ترسبات القصيدة البكائية القديمة المتوشحة بالحزن والمغرورقة بالدمع ولا سيما قصيدته فاجعة الطف[٣٢].

أما الدكتور محمّد حسين الصغيرة فله خمسة قصائد انتهج فها نهج الجواهري في رؤيته للامام الحسين وثورته في كربلاء[٣٣]:

سـر في هـداك ونـور الافاقـا وتـبنَ جـيلا صـاعدا خلاقـا
وافض بما أوتيت من شمم الإبا ارجـا يفـوح وسلسـلا رقراقـا

وفي الرائية سرد الدكتور الصغير قصة الثورة ـ ثورة الطف ـ وتفاصيلها دون أن ينزلق إلى التعبير النثري[٣٤]:

سما عظما تاريخك الأنجم الزهرا وفاض بهاء تستضيء به الذكرى
وسار مع الأجيال في نهضاتها لغاياتها القصوى فتابعت المسرى
تعالى منارا عبقريا مقدسا على الكون قد خطت روائعه سطرا

والدكتور الصغير لم يستطع وهو الذي تربى تحت ظلال المنابر الحسينية أن يكتم حزنه ويغالب دموعه التي سكبها في قوله[٣٥]:

فيا طرفي الهامي تفجر مدامعا لرزء أبيّ الضيم ساكبة حمرا
ويا قلبي الدامي تسعر فجائعا بيوم أبي الأحرار لاهبة جمرا
ويا شعري الظامي تمطر روائعا لنازلة بالطف حيرت الشعرا

ومن طريف حسينيات الشيخ الصغير تلك النونية التي عارض فيها شوقي الذي رثى فيها بني أمية، يقول الدكتور الصغير[٣٦]:

قف من ربى الطف وانشد رسم من بانوا فانها من جبين الدهر عنوان
في كل ثغرة جرح من دمائهم أشعة وترانيم وألحان
لاح الصباح عليها فازدهى غررا وجادها الغيث غضا وهو نشوان
لولا الحسين لغام الأفق واندلعت مرارة وطغى للغي طوفان
ما كان غير ابي الأحرار منقذها بصرخة هي للتغيير إعلان

إن مناداة الشيخ الصغير بالتغيير في هذه القصيدة تعد جرأة غير مسبوقة لشعراء العراق في تسعينيات القرن العشرين حيث نظام قمع الكلمة الحرة قائما آنذاك.

ويأتي الشاعر عبد الحسين حمد بأربع قصائد مضمخة بأريج الحسين بيد أن طابع الكلاسيكي القديم والثوب المستعاد الحزين قد لون تلك القصائد مع وجود ملمح قد ألح عليه الشاعر حمد حينما ولج أفقا شائكا تمثل في مهاجمة

الأمويين واستعراض مثالبهم في التاريخ وهو قد وجد في ذلك تشفيا لكبد حرى مفجوعة بما حدث للحسين في كربلاء. فهو يقول[٣٧]:

أبـا الشـهادة مـا ألهبـت قـافيتي بلاعج الطف إلا كدت التهب
ومـا خضـبت نشـيجي في نجـيعكم إلا وكـاد فـؤادي فيـه يختضـب

والشاعر قد لامس جرح العراق في ظل النظام السابق بقصيدة (أبا الشهداء) بقوله[٣٨]:

أبـا الشـهداء طـال بنـا انتظـار ولم نـدرك بصـوال منيـع
خنعنـا للمذلـة وانتشـينا بتأليـه الصـعالك والشسـوع
مـن الطـف المقـام علـى نجيـع إلى اليـوم المقـام علـى نقيـع
نسـام الخسـف في عـتم الـدياجي ويسـلمنا المريـع إلى المريـع

ولم يتخلص الشاعر عبد الحسين حمد من أرث القصيدة الحسينية القديمة وتقاليدها في البكاء والمطالع الحزينة كما في قصيدة (يا سيدي يا ابا الفادين)[٣٩]:

أطلَّ يومك يوم الطف بالشجن ألا لك الله يا قلبي من الحزن
يا سيدي جد بي شجوي وأرقني حزني فها أنا نهب الحزن والشجن

وفي (عينية) ابن الوصي يتساءل الشاعر لِمَ يلام على البكاء فإن العين عينه والدموع دموعه وربما هو لا يعلم أن قضية الحسين ليست قضية بكاء ونحيب انما هي مجد وثورة وإباء وتغيير[٤٠]:

يا من تلوم العين تذرف دمعها ماذا يضيرك ان عيني تدمع
يا لائمي في سفح دمعي لو ترى مابي لما جفت لعينك ادمع

وعبد الحسين حمد كان وفيا للجواهري حين اعترف بقصب السبق للجواهري وعلو كعب عينيته (أمنت بالحسين) مخاطبا الجواهري في بائية يقول فيها[٤١]:

لا لن تموت تشغل الحقبا ... لا لن تغيب ستبقى تملأ الكتبا
وان واحدة في السبط ما شفعت ... للان تشهد باعجاز الادبا
شممت ثراه فاستفاض شذى ... رغم اختلاج الليالي يستفيض ابا
تعفر الخد فيما يستريح به ... خد تفرى ولم يضرع لمن حلبا

وفي سلسلة شعراء الحسين العراقيين يأتي عبد الرزاق عبد الواحد بميمية حسينية فارعة تؤكد ما طرأ على القصيدة العربية الحسينية من تطور وتجديد ابتدأه الجواهري وسار عليه الشعراء العرب المعاصرون[٤٢]:

قدمت وعفوك عن مقدمي ... حسيرا أسيرا كسيرا ظمي
فمذ كنت طفلا رأيت الحسين ... منارا إلى ضوئه انتمي
ومذ كنت طفلا وجدت الحسين ... ملاذا بأسواره احتمي
ومذ كنت طفلا عرفت الحسين ... رضاعا وللآن لم أفطم

والحسين في قصيدة عبد الواحد رمزا قد اغتنى بدلالات افتقرت إليها قصائد الشعراء العرب الذي سبقوه بما فيهم الجواهري. فإذا كان تشبيه الحسين بالمنار والملاذ قد ورد في صور الشعراء ما قبل عبد الواحد فإن وصف الحسين بـ (السلام) و(الدليل) و(صلة الجبين) و(لآلآء الشمس) و(سنا كربلاء) ومن (ضجت باضلعه الكبرياء). فان تلك الأوصاف تعد ملمحا إبداعيا جديدا لعبد الرزاق عبد الواحد ومنجزا شعريا للقصيدة الحسينية المعاصرة. وبهذا فان عدد من الشعراء القرن العشرين ما بعد الجواهري قد ابتعدوا عن ثوابت القصيدة القديمة في بكائها وطبيعة حزنها ودلائله الملموسة كتذراف الدموع

ولطم الخدود والاتشاح بالسواد. تلك المعالم التي دأبت عليها القصيدة العربية ورافقتها أكثر من ١٤قرنا حتى مجيء الجواهري والرعيل الذي بعده وقد خطت القصيدة العربية الحسينية خطوة ابعد حينما طرقت القضية الاجتماعية والسياسية الراهنة كما لدى عبد الرزاق عبد الواحد في قوله(٤٣):

كذا نحن يا سيدي يا حسين شداد على القهر لم نشكم
لئن ضج من حولك الظالمون فإنا وكلنا إلى الأظلم
بنو عمنا أهلنا الأقربون واحدهم صار كالارقم
تدور عليها عيون الذئاب فنحتار من أيها نختمي

فالحسين في ميمية عبد الرزاق عبد الواحد كان محورها وفلكها الدائر لكن الشاعر قد اشرك بعضا من أبطال المعركة وشهد رحاها حين دارت على الحسين كالسيدة زينب والحر الرياحي وقد منح الشاعر شخصية الحر مساحة واضحة مستعيدا أجواء مسرحيته الشعرية (الحر الرياحي).

إن تأثير الجواهري على ميمية عبد الرزاق واضحة غير أنها ان عبد الرزاق قد خالف الجواهري حينما استهل قصيدته بتاء الشاعر في الافعال قدمت (مرتين)، وفي (كنت) ثلاث مرات كما جاءت تاء عبد الرزاق عبد الواحد الفاعلة في (وجدت) (رأيت)، (عرفت). ثم يأتي الحسين لتحمله كافات الخطاب وتاءاته المؤترجة باسم الحسين فالشاعر هنا في حرم قصيدته لم يكن سوى رجل عراقي مفزوع خائف من مصير مجهول شأنه شأن الشعب العراقي في تلك الحقبة السياسية المعتمة ـ حقبة التسعينات ـ وهو لم يستطع أن يبوح بما يخالجه من مشاعر رفض لبعض جوانب ما يجري حوله ولهذا لجأ إلى الحسين فكان له (منارا وملاذا) ورمزا للرفض والكبرياء ..غير انه ابتعد عن أن يقرن الحسين بدعوة (التغيير) أو (الإصلاح) لان ذلك يعد خط احمر لا يمكن

تجاوزه في ظل نظام سياسي يعتقد انه ابدي وراسخ لا يزول وقد سقط هذا النظام في ٢٠٠٣/٤/٩. كما هو معروف للجميع.

الخاتمة

بعد هذه الإضاءة السريعة لملامح القصيدة الحسينية مذ فجرها الأول حتى اليوم وعبر أطورها الثلاثة القصيدة الحسينية ما قبل الجواهري والقصيدة الجواهرية والقصيدة العربية الحسينية ما بعد الجواهري نستطيع أن نلخص نتائج هذه الدراسة.

١ـ اكتفت القصيدة القديمة ما قبل الجواهري بالبكاء وقد أبعدت الحسين عن جوهره الحقيقي ولم تصوره ثائرا بل قتيلا مظلوما يستحق الشفقة والبكاء والحزن والحسين غير ذلك تماما.

٢ـ الجواهري من خلال أمنت بالحسين بدأ عهدا جديدا للقصيدة العربية الحسينية إذ قدمت هذه القصيدة مفهوما جديدا للحزن حينما دعت إلى نوع من الحزن يليق بالحسين وهو (حبس النفوس على نهجه النير الثائر) .

٣ـ لقد قرأ الجواهري الحسين في (العينية) قراءة جديدة خلاف بها القراءة السائدة التي تتسم بالسذاجة وعدم الارتقاء إلى مستوى شخصية الحسين ودواعي نهضته.

٤ ـ أطل الجواهري من خلال هذه القصيدة على عالم الحسين الذي جسد الثورة والإباء وفيض النبوة وروح السماء.

٥ـ لقد تمكن الشعراء بعد الجواهري أن يلتقطوا لباب القصيدة الحسينية واخذوا يتعاملون مع الحسين رمزا للرفض والتمرد والثورة والتغيير والإصلاح مما قلص مساحة الدموع في القصيدة العربية التي جاءت بعد الجواهري وانحسارها كما وجدنا في حسينيات السيد مصطفى جمال الدين

والشيخ الوائلي والدكتور الصغير وعبد الحسين حمد وعبد الرزاق عبد الواحد .

٦ـ وبهذا فان القصيدة الحسينية على مر عصورها كانت قصيدتين حسينية بكائية حزينة مكتئبة مستسلمة أحيانا وقصيدة إباء رافضة ثائرة متفائلة بالتغيير وداعية إليه. كل ذلك كان بتأثير الجواهري وعينيه الحسينية الخالدة.

هوامش البحث

(١) المحاسن والمساوئ ـ البيهقي : ٦٢. وينظر أدب الطف: ١/٥٤.

(٢) أدب الطف : ١/١٨٢و٣ـ٤: ينظر أدب الطف :١٨٢ـ١٩٨.

(٣) نفسه :١٨٢ـ١٩٨.

(٤) نفسه : ١٨٢–١٩٨.

(٥) نفسه : ١/٢١٠ وينظر : أروع ما قيل في الإمام الحسين : ٨٥.

(٦) نفسه ٢٩٦٦ـ ١/٢٩٣.

(٧) نفسه ٢/١٤.

(٨) نفسه ٢/١٠٣.

(٩) نفسه :٢/١٢٤.

(١٠) نفسه:٢/٢٦١.

(١١) نفسه:٥/١٢٧.

(١٢) نفسه:١٠/١٠١.

(١٣) الحداثة في الشعر العربي الحديث،سعيد بن زرقة: ٢٠٤.

(١٤) الصراع بين القديم والحديث ، محمد حسين الاعرجي:١٢.

(١٥) العواصف، جبران خليل جبران:١٨.

(١٦) دمعة وابتسامة: ٣٩.

(١٧) ديوان الجواهري: ١/١٥٥.

(١٨) نفسه : ١/١٥٥.
(١٩) نفسه : ٣١٥/١.
(٢٠) نفسه :٢/٢٥١.
(٢١) نفسه قصيدة عاشوراء: ٣/٢٥٣.
(٢٢) نفسه عاشوراء : ٣/٢٥٤.
(٢٣) الجواهري النهر الثالث:٣٩.
(٢٤) ينظر ديوان العصر ، حسن العلوي: ٢٥.
(٢٥) ينظر: الجواهري مسيرة قرن : ٥- ٣٩٣. وينظر ديوان العصر ، الأستاذ حسن العلوي :١٠٥- ٣٧٠.
(٢٦) ينظر : مجمع الأضداد ، سليمان جبران : ٦٦- ٢٤٢.
(٢٧) الجواهري النهر الثالث: ١١- ٣١٢.
(٢٨) الحداثة : ٢٣٢.
(٢٩) ديوان مصطفى جمال الدين : ٥٥.
(٣٠) ديوان الشيخ الوائلي: ١١٩.
(٣١) نفسه : ١١٥.
(٣٢) ينظر نفسه: ١٢٧.
(٣٣) ديوان محمد حسين الصغير: ١٧٠.
(٣٤) نفسه : ١٧٤.
(٣٥) نفسه : ١٨٣.
(٣٦) نفسه : ١٨٥.
(٣٧) ديوان عبد الحسين حمد : ٦٧.
(٣٨) نفسه : ٧٣.
(٣٩) نفسه : ٧٣.
(٤٠) نفسه : ١١٢.
(٤١) ديوان عبد الحسين حمد : ١١٢.
(٤٢) ديوان عبد الرزاق عبد الواحد (قصائ) : ١٤٣.

(٤٣) نفسه : ١٥١.

قائمة المصادر والمراجع

١- إبراهيم بن محمّد البيهقي، المحاسن والمساوئ، تحـ : ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط١.

٢- أحمد الوائلي، ديوانه، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٥.

٣- جبران خليل جبران، دمعة وابتسامة، مؤسسة غازي، بيروت.

٤- جبران خليل جبران، العواصف، مؤسسة غازي، بيروت

٥- جواد شبر، أدب الطف، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠٠١.

٦- الجواهري، ديوانه جـ ١-٥، بيسان، دمشق، ٢٠٠١.

٧- الجواهري، مذكراتي، جـ ١-٢، دار المجتبى، إيران،٢٠٠٥.

٨- حسن العلوي، ديوان العصر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦.

٩- د. خيال محمّد مهدي الجواهري، الجواهري النهر الثالث، بغداد، ٢٠١٠.

١٠- د. خيال محمّد مهدي الجواهري، الجواهري مسيرة قرن، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤.

١١- د. سعيد بن زرقة، الحداثة في الشعر العربي الحديث، دار أبحاث للترجمة والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.

١٢- د. سليمان جبران، مجمع الأضداد ـ دراسة في سيرة الجواهري وشعره، المؤسسة العربية للدراسات، عمان، ٢٠٠٣.

١٣- عبد الحسين حمد، ديوانه (شواظ القوافي)، المكتبة الأدبية المختصة، النجف، ٢٠٠٩.

١٤- عبد الرزاق عبد الواحد، ديوانه (قصائد)، مطبعة زياد، بغاد، ١٩٩٧.

١٥- عليّ محمّد عليّ دخيل، أروع ما قيل في الإمام الحسين (ع)، دار المنتظر، بيروت، ٢٠٠٤.

١٦- د. محمّد حسين الصغير، ديوان (أهل البيت)، مؤسسة البلاغ، بيروت، ٢٠٠٩.

١٧- د. محمّد حسين الاعرجي، الصراع بين القديم والحديث، المركز العربي للثقافة والفنون.
١٨- محمّد مهدي شمس الدين، عاشوراء، الدار الإسلامية، بيروت .
١٩- د. مصطفى جمال الدين، ديوانه، دار المؤرخ العربي، بيروت، ١٩٩٥.